والفنادق التي يملكها أشخاص من (كانتون) مُقفرة، وكل خيزرانيّة ترسو تعود مُثقلة بالبضائع والتجّار. والفقراء في الأحياء الوضيعة هم أيضاً خائفون. حتى إن الرجال استعادوا نساءهم.

وإذ خشي ألا يفهم مستمعوه قصده فقد أسرع يُضيف:

ـ إنها العادة هنا. في كل شهر، عندما تكون المرأة غير طاهرة، يطردها زوجها من البيت ليبرهن للجميع أنه لم يَقْرَبْها؛ وتذهب للإقامة في الشارع تحت ظُلّة مدّة أسبوع. وأما الآن فسواء كنّ دَنِسات أو لا فقد أُعِدنَ إلى البيوت خوفاً من أن يأسرهنّ الجنود لدى وصولهم.

وتدخّل «مالكوس» قائلاً:

ـ يبدو لي هذا الخوف مُبالَغاً فيه. فلا يمكن أن يدخل الجيش مدينة استولى عليها من غير بعض النهب، ينبغي الاستسلام لهذا؛ غير أنه في الوسع تجنّب أسوأ الأمور. لا تَدَعوا أماكن عرض البضائع خالية، وإلاّ انتقم الجنود من السكّان بفعل الحرمان. دعوا لهم شيئاً ينهبونه من غير أن يُفقروكم، وتظاهروا بأنكم مُصابون من غير أن تعترضوا. وإذا كانت المدينة قد صمّمت على التسليم بلا قتال، وإذا هي قدّمت إلى الأمير هدايا نفيسة، قلّت الأسلاب، وسرعان ما يكون بالإمكان إعادة البضائع المخبَّأة إلى الواجهات. فأنا نفسي تاجر في (المدائن)، عاصمة «أردشير» بالذات، وفي مقدوري ممارسة تجارتي بلا كبير عناء. ولقد احتلّ «الساسانيون» خلال الأعوام الأخيرة عدّة ثغور مثل (شاراكس) التي قدِمنا منها؛ ولم تُعانِ هذه المدينة كثيراً من سيطرتهم. إنهم رجال نظام، وسوف يجعلونكم تدفعون مُكوساً، غير أنهم سيَدَعونكم تعملون ويحمونكم من القراصنة.

كان من حسنات أقوال «مالكوس» هذه أن شدّدت من عزيمة مخاطَبيْه، فأخذا، بدلاً من الاكتفاء بندب حظّهما وبالشكوى، يُواجهان أمر إرسال وفد لاستباق الغازي. واقترح الكاهن أن يضمّ أكثر التجّار وجاهةً محمَّلين بالهدايا، وأن ينطق باسم أهل المدينة أحد رجالها الموقَّرين.